نحو مشروع ثقافي عربي

سلافة حجاوي

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

١ ـ أتيح لنفسي التصرّف في عنوان هذا الموضوع الذي اقترح أصلاً بصيغة: «المشروع الثقافي العربي: واقع وآفاق»، وذلك انطلاقاً من القناعة بأن هذا المشروع غير قائم الآن، بل إن أقصى ما يمكن التحدّث عنه في سياق الواقع القائم، هو التحدّث عن الثقافة أو الثقافات في المنطقة العربية. وليس عن ثقافة عربية معاصرة، بمعنى أن الشخصية القومية العربية لم تتبلور حتى الآن، إن لم تكن قد فقدت الكثير من معالم التناسق التي تشكّلت في مراحل المد القومي العربي السابقة. ولا يكفي أن نقول بأن اللغة والدين أو التراث تكفي وحدها لتكوين وحدة ثقافية، ما لم تتم الاستفادة من هذه المقوّمات من أجل هدف أعلى هو هدف الارتقاء بالإنسان والأمة، وإرسائها على مفاهيم ومنطلقات ونظريات معرفية تمنحها الثقة وتوفّر لها منظوراً للمستقبل. فنحن حين نتعرّف على ثقافة أمة من ألامم الراسخة، إنما نتعرّف على تلك المرتكزات الثقافية التي شدّت أجزاءها بعضها إلى بعض وجعلت منها أمة واحدة، ولا نكلّف أنفسنا البحث عن مرتكزات عجزت عن شدّ الأمة بعضها إلى بعض، ووضعتها في حالة صراع بين أجزائها. فالأمة وجود سياسي. ولا وجود لأمة بدون وجود سياسي واحد إلا في عقول الذين يعتاشون على الماضي، أو إلاّ في عقول الذين يعملون على إعادة بناء الأمة منطلقين من الماضي. وإذا كان العالم قد أخذ بالاتجاه أكثر فأكثر نحو تجاوز الأمم باتجاه وحدة الأمم، نحو التكتلات الكبيرة، متجاوزاً عصر الأمة الدولة إلى عصر الدولة الأمم، مقرّباً ما بين ثقافات الأمم، مقيماً البنى والجسور فيما بينها، فلا بد لنا أن نتساءل عن مقدار تلك الهوّة التي أخذت بالاتساع المريع، بين منطقتنا العربية والعالم الآخر، ولا بد لنا من التساؤل: هل نحن خارج التاريخ؟

٢ ـ لقد ارتبطت الثقافة دائماً بالسياسة، بل هي في حقيقتها تعبير سياسي وعملية سياسية، سواء أكان مجالها الأدب أم العلوم الانسانية أم الثقافية الشعبية. بل صحيح ما يقال بأن أية قصيدة حب مثلاً هي فعل سياسي لأنها تسعى إلى تغيير العلاقات الاجتماعية. ولقد تعاظم الدور السياسي للثقافة في العصر الحديث على نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ، وذلك مع انبثاق الدولة القومية أو الدولة الأمة. فحتى في أوروبا، حيث جرى الحديث في بداية العصر الحديث عن أمم راسخة أنشأت دولها، كان لا بد من تجنيد الثقافة من أجل إعادة صياغة تلك الأمم المشاريع على نحو يتطابق مع متطلّبات الدولة الأمة الحديثة. وإذا كانت الدولة بجهازها هي التي تبث الثقافة بفعل ما تتمتّع به من سلطة، فتعزّز الثقافات الموروثة أو تعمل على دثرها، تكتسب من خارجها ما يتلاءم معها وتنبذ ما لا تريد، فإن المثقفين بما يتمتّعون به من طاقات فكرية وقدرات إبداعية هم الذين يخلقون السياسي المنفّذ، ويضعون النظريات. وبالتالي هم الذين يبنون المجتمعات ويقيمون دعائمها. ولا ينطلق المثقفون المفكرون من فراغ، وإنما ينطلقون من رصدهم لحركة التاريخ والمجتمعات مستفيدين من قدرتهم على استشفاف المستقبل. فإذا كانت التحولات الاقتصادية ـ والاجتماعية هي الفاعل الأساسي في حركة التاريخ، فإن المثقف هو أول من يرصد ويحلّل حركتها وتوجهاتها. ويقترح توجيهاتها. فليس هناك من سياسي منفذ ليس شخصاً عادياً في العادة، بمعنى أنه لا يقتصر في ثقافته على الثقافة الموروثة بكل ما تتمتّع به في العادة من جمود وتحجر، فهو يسلّح نفسه بما يقدّمه المثقفون المتحركون الفاعلون، قد يختار ما يلائمه ولكنه يختار ما هو أكثر فاعلية وتأثيراً، وبالتالي، يكون المثقفون هم المسؤولون أولاً وأخيراً عن حركة السياسي. والويل كل الويل لمجتمعات خلت من المثقفين وانطلق الساسة المنفّذون فيها من ثقافات موروثة متحجّرة.

٣ ـ ولم يشهد العالم في تاريخه الطويل عصراً أكثر حراكاً وديناميةً من عصرنا الراهن. فهو عصر خطا في مسافات زمنية قياسية من مجتمع العائلة والعشيرة إلى مجتمع الأمة فما فوق الأمة. بمعنى أنه

عصر يستشرف المستقبل، عصر ينظر إلى الأمام، منطلقاً بسرعة فائقة من الماضي نحو الحاضر فالمستقبل وفق نظام. وقد التزم المثقفون في المجتمعات والدول الراسخة بهذا النظام بشكل عام. فالعقل سيِّد الأحكام. وإذا كان المثقفون هم الذين نظروا لعصر الدولة ـ الأمة بحكم معاينتهم لما يحدث على أرض الواقع من تطورات اقتصادية ـ اجتماعية، فإن ترسيخ الدول ـ الأمم قد تمَّ أيضاً على يد المثقفين. هكذا ساد مفهوم الثقافة القومية وانهزمت الثقافات المعاكسة لحركة التاريخ والمجتمعات، وفتحت الديمقراطية التي هي نتاج أفكار المثقفين المفكرين، الأبواب مشرعة أمام كافة الاجتهادات في إطار المصلحة القومية. وكلما ازداد الازدهار قلّت المعارضة الثقافية ودارت الخلافات الفكرية حول القضايا الثانوية.

٤ ـ فالأزمة التي تعيشها الثقافة في المنطقة العربية هي أزمة الخروج عن عجلة التاريخ. هي أزمة اللانظام في التطور التاريخي. هي أزمة مفهوم الأمة. أزمة الانفصام ما بين ذاكرة كينونة عربية إسلامية تفرض نفسها بإلحاح عبر تواصل اللغة والتراث الواحد للجماعة، أمة بنتها العائلة والعشيرة والقبيلة، وبين واقع الدول الحديثة المقامة قسراً بدون شرط الحداثة. دول فقدت صلتها بالماضي وبالمستقبل. فهي غير قادرة على الرجوع إلى الماضي، إلى مفهوم الأمة السابق الذي افتقد كل شروطه الاقتصادية ـ الاجتماعية، ولا إلى المستقبل لعجزها عن تحقيق شرط الحداثة. هكذا أصبحت الثقافة منقطعة عن شروطها التاريخية. وإذ أصبح الواقع غير قادر على إنتاج ثقافته، تحرك السياسي بدون قاعدته الثقافية الموجّهة. وصار الواقع الفعلي هو الذي يوجِّه السياسي بعيداً عن المثقف المفكِّر ورؤاه الطالعة من الماضي إلى المستقبل.

٥ ـ وإزاء ذلك فإن الثقافة ليست عملاً إبداعياً رؤيوياً، بل لقد أصبحت ملحقاً لواقع مشوّه، عملاً تبريرياً: فالدول القائمة في المنطقة هي حقيقة قائمة، دول تخلق أممها على نحو الحاصل في كثير من التجارب . وإذا كان العالم آخذاً بالاتجاه إلى عالم ما فوق الأمة، فإن التطور سوف يلزم الدول ـ الأمم العربية بالاتجاه نحو الوحدة، عاجلاً أو آجلاً.

٦ ـ غير أن الدولة قد فشلت في منطقتنا في تحقيق شرط الدولة الأمة الأساس، ذلك هو التحديث. وإذا عبر العالم المتقدم من ثورته الصناعية الأولى إلى الثانية فالثالثة، فهي قد عجزت كوحدة سياسية في تجاوز عتبة الثورة الصناعية الأولى التي أنجبت «الأمة»، وإزاء فشلها في النهوض باقتصادها وغرقها في الديون الخارجية، فإن البنى الاجتماعية فيها قد بقيت على حالها فكوّنت أزمة ماضٍ منحسر وحاضر لا يوفِّر البديل، واندفعت الجماهير بحثاً عن هويتها في السلفية والطائفية والعشائرية والعائلية. هكذا تقف الدول في منطقتنا الآن، ليس فقط عاجزة عن تشكيل أممها، وإنما قابلة موضوعياً للتحلّل إلى دويلات طائفية وعشائرية.

٧ ـ وفي ظل هذه الأجواء، يبدو واضحاً لماذا لم يتمكّن المثقفون من الإجابة على ما لا حصر له من المعضلات الثقافية، من الإجابة على تلك المصطلحات التي استوردناها من العالم المتقدم، دون أن نستورد الأسس المادية التي أدَّت إلى ظهور تلك المصطلحات الديمقراطية وحقوق الإنسان وغيرها. ففي عالم أوروبا القديم، عالم ما قبل الدولة الأمة وقبل التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي الذي أنجبها، لم يكن هناك ما يدعو إلى تداول هذه المصطلحات. لم تكن موجودة أصلاً: إنها مصطلحات ومفاهيم ظروف اقتصادية ـ اجتماعية معيّنة لم تتوفّر في مجتمعاتنا.

٨ ـ وبالتالي فإن التذمر في أوساط المثقفين إزاء غياب الديمقراطية وحقوق الإنسان وما يبدو من اتجاه جماهيري متزايد نحو الأصولية الإسلامية ورفض للدنيوية، هو ترف ثقافي. فالثقافة الموروثة هي السائدة في مجتمعاتنا. وإذ فشلت الدول القائمة في تحقيق التحديث، فهي قد أبقت على البنى القديمة على حالها، وإذا طلب من الإنسان أن ينظر إلى ما تحت قدميه بدلاً من النظر إلى السماء، لم يجد تحت قدميه إلّا الجوع والمهانة، فلماذا لا يحول نظره إلى السماء بحثاً عن المعجزة، ولماذا يعاب على العقل العربي بأنه عقل الأسطورة، طالما أن المثقف ذاته لم يخرج من عالم الأسطورة؟

٩ ـ هكذا تتحوَّل فلسطين إلى رمز للكرامة الإسلامية المهانة، المعتدى عليها من قبل عصر القومية الدنيوية. وهكذا يعود مكان أولى القبلتين وثالث الحرمين والإسراء والمعراج إلى عنوان لاستعادة ماضٍ مفقود، إلى فردوس مفقود، وتعود إلى الواجهة مصطلحات قديمة لها فاعلية السحر: الجهاد، ويعود الماضي محملاً برؤى عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي. وهكذا تعود «الصهيونية» لا بصفتها واجهة ومعلماً من معالم الاستعمار الأوروبي ـ الأمريكي، وإنما بصفتها حركة يهودية سعت إلى تحطيم الإسلام، وتحل صورة يهود خيبر محل صورة شلومو الأوروبي الشرقي. ولمَ لا؟ فهذه الدولة الحديثة التي قامت في المنطقة على أنقاض الوحدة الإسلامية هي مبرّر قيام إسرائيل. فلولا ما حدث من تقسيم للمنطقة، لما ضاعت فلسطين، ولما قامت إسرائيل.

١٠ ـ ويبدو واضحاً أن كل هذه التطورات قد أخذت المثقف العربي على حين غرّة. فالمثقف بشكل عام هو الإنسان الذي يمتلك المعرفة والرؤية والقدرة على صياغة منظومات فكرية لواقع جديد مطلوب. وإذ اقترن الماضي بالتخلف، لم يعد هناك مناص من اللجوء إلى بنى فكرية جديدة من الخارج، بعد أن فشل الواقع في انتاج مستقبل منطلق من واقعه. وإذ تمَّ تقسيم المنطقة وإدراجها في نظام الدول القومية الحديثة قبل أن تتمكّن النظرية القومية العربية من صياغة نفسها، فقد أصبح المثقف موزعاً بين فكرة قومية مجهضة ودولة قومية قطرية متحقّقة. وإذ هزم بكافة الأفكار التي اعتنقها من قومية وماركسية وليبرالية وغيرها، فقد أصبح موزعاً بين الخاص والعام، بين الدولة التي ينتمي إليها والفكرة القومية التي تمثَّل بها. ومن الطبيعي أن يتغلب الخاص على العام، والدولة على الفكرة. وأن يصبح

الهم الخاص هو الأساس والهم العام هو الترف، حيث تقمّص العام شخصية الأخوة العربية والعلاقات العربية ـ العربية، بينما انهمك الخاص في إعادة إنتاج ذاته داخل جدران الدولة.

١١ ـ فإذ فشلت الدولة في إنجاز عملية التحديث، لم يعد أمام المثقف ما يتطلّب الإبداع والتغيير. وهي إذ عمدت، بفعل فشلها في إنجاز التحديث، إلى ممارسة كل وظائفها القمعية المرتبطة بالدول المختلفة، فقد ازداد ارتباط المثقف بجهاز الدولة لضمان أمنه المادي والمعنوي. وإذ اضطرت الدولة إلى ممارسة مظاهر بعض وظائفها بفعل انتمائها للمجتمع الدولي، كالتعليم فقد ازداد عدد المثقفين وأشباه المثقفين. فهاجر من هاجر بحثاً عن العمل والكرامة.

١٢ ـ والساحة الفلسطينية غير مستثناة من هذا الواقع، إن لم يكن واقعها أشد حدّة. فرغم ما لمنظمة التحرير الفلسطينية من مؤسسات، فهي في الواقع دولة في الهواء. والثقافة الفلسطينية هي في الأساس ثقافة إسلامية، بل أكثر إسلامية من غيرها من المجتمعات العربية الأخرى بفعل مركز فلسطين الديني. ولم تجد الفكرة القومية رواجاً كبيراً لها في الساحة الثقافية الفلسطينية قبل الحرب العالمية الأولى. بل كان هناك توجّس وخيفة من الفكرة القومية لاقترانها بتدفق اليهود على فلسطين، وكان التمسك بفكرة السيادة الإسلامية والثقافة الإسلامية أشبه بدرع تحاول اتقاء ما برز من اتجاهات في الساحة الثقافية القومية منذ أواخر القرن الماضي، باتجاه الترحيب باليهود وتشجيع استيطانهم فيها. ولعل هذا هو الذي يفسّر قلّة الإسهامات الفكرية الفلسطينية آنذاك في التنظيرات القومية التي انطلقت في مصر وسورية ولبنان بشكل خاص، غير أن الأمر ما لبث أن اختلف بعد الحرب العالمية الأولى. فإلى جانب التوجه الإسلامي العام للثقافة الفلسطينية، انتعشت الأفكار القومية، ولم يكن ذلك ناجماً عن حقائق اقتصادية اجتماعية، فالفسطينيون كانوا يجرّدون من أساسهم المادي بانتظام على يد الحركة الصهيونية والانتداب البريطاني، وإنما للبحث عن ذلك الفضاء الرحب الفسيح الذي كانت تنتمي إليه فلسطين بدعة فيما مضى، والطرق على جدران نصبت على حين غرة، تاركة فلسطين وحيدة في الميدان.

١٣ ـ ولقد أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية منذ تشكّلها أقرب إلى دولة بين الدول. وتمحورت التوجهات الثقافية الفلسطينية حول بناء وتأكيد الهوية الوطنية الفلسطينية المعرّضة للإلغاء من قبل إسرائيل وحركتها الصهيونية. وكان ذلك كافياً لأن يستقطب كل الاهتمام، وأن يتخذ من فلسطين محوراً لكل النشاطات في وقت تزايد فيه ابتعاد الدول القطرية عن القضية الفلسطينية وحكمت القضايا الحدودية العلاقة بينها وبين إسرائيل. رغم ذلك، فقد بقي الهم الثقافي الفلسطيني مشدوداً للساحة العربية أكثر من انشداد الساحات الفطرية القطرية بعضها إلى بعض، وذلك بحكم وجود الفلسطينيين فيها ومشاركتهم للمعاناة فيها، في وقت صار فيه حديث الفلسطيني في الدول القطرية يقع على آذان صمّاء، مثيراً للضجر والاشمئزاز. فقد كان لكل طرف خازوقه الذي يجلس عليه، وإزاء انكفاء الفلسطيني على ذاته، والعربي القطري على ذاته، حرمت الثقافة الفلسطينية من الإبداع الفكري وغاب التعامل حتى مع القضايا التي تمس صميم القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني، سواء بالنسبة لمفهوم الوطن والعلاقة بين القومية والوطنية الدنيوية والدين والعلاقة بين الفلسطيني واليهودي وطبيعة الدولة والمجتمع وحقوق الإنسان والديمقراطية والمرأة والقانون إلى غير ذلك من القضايا والأمور. هكذا بدت الثقافة الفلسطينية ثقافة مسطحة مفتقرة إلى العمق المثري للعملية النضالية، المشع على نفسه وعلى ما حوله. فإذ بقيت البنى الاجتماعية الفلسطينية على حالها، سواء داخل الأرض أو خارجها، حيث انتقلت العائلة والعشيرة والقرية بتركيبتها إلى المخيم، وإذ بقيت الثقافة السائدة هي ذاتها، فإن حلم الماضي، حلم الفردوس المفقود، حلم فلسطين القَبْل، الذي طالما بكى عليه وندبه كتاب وأدباء الخمسينات، ما لبث أن تحول مع انطلاق المقاومة الفلسطينية إلى فعل إيجابي، إلى تحدّ وتصميم وإرادة، لتحرير ذلك الفردوس المفقود، حلم فلسطين القبل. فالثقافة الفلسطينية العامة هي ثقافة الماضي الذي لا يتغير، الدائم المتواصل في الذاكرة والوجدان، ثقافة الأرض المقدسة التي يستشهد الفلسطيني فوقها، ليس فقط لأنها حقه المسلوب، بل لأن الشهادات من أجلها تحقق الخلود. ولا يمكن النظر إلى هذه الثقافة التي تحكم العملية النضالية الفلسطينية بوصفها ثقافة سلبية تماماً إن لم تكن إيجابية حقاً. ففي ظل ما يحكم المنطقة كلها بشكل عام من واقع اقتصادي ـ اجتماعي ثقافي، كان من شأن غياب هذه الثقافة القبلية التي أطلقت الفعل الفلسطيني، أن يغيّب هذا الفعل، بينما يمكن القول بأن غياب الثقافة الديناميكية ذات المنظور التاريخي من شأنه أن يفرز مشاكل ثقافية عديدة في المستقبل.

١٤ ـ ما الذي ينتظر المنطقة؟ يبدو واضحاً أن الأزمة قد بلغت ذروتها، ويبدو واضحاً كذلك أن ما يحدث اليوم في منطقتنا، الانتفاضة الفلسطينية من جهة وأزمة الخليج من جهة أخرى، يشكلان صرختين مدويتين في ضمير هذه الأمة، يشكلان تحديين كبيرين لكل تاريخ هذه المنطقة، للأمة المفقودة، للأمة التي تصارع من أجل ولادة جديدة. فكافة التطورات التي شهدها العالم في هذا العقد، بدءاً بالثورة الصناعية الثالثة التي قلبت كل المعادلات والموازين فأنهت المعسكر الشرقي بكل منظومته الثقافية، وعززت انتصار القيم الرأسمالية الليبرالية وقسمت العالم قسمة جديدة: عالم صناعي متقدم وعالم متخلف مستهلك، إنما يؤكد أن المنطقة قد أصبحت أمام خيارين: خيار الإبقاء على الوضع الراهن وتفاقم أزمات الدول القطرية إلى مرحلة من التبعية التامة والاستعمار المباشر، أو الاتحاد والتضامن بتحقيق شكل من الوحدة كفيل بفعل

التعامل بأن يجنب المنطقة التبعية وينقلها إلى درجة من الازدهار، إلى عتبة الثورة الصناعية الثانية على الأقل.

١٥ ـ هكذا تقف الساحة الثقافية الآن أمام تحديات خطيرة تهز أركان الثقافة والثقافات السائدة، السلفي منها والحداثوي. بل إن ما تطرحه الانتفاضة الفلسطينية من جهة وأزمة الخليج من جهة أخرى من تحديات ثقافية في هذا الوقت بالذات، إنما يؤكد على ضرورة إخضاع كافة المصطلحات والمفاهيم المحلية والمستوردة إلى البحث والتفكير، فهذان الحدثان قد طرحا تحديات مثل: ما هي الشرعية؟ والشرعية الدولية؟ هل لسايكس ـ بيكو شرعية؟ هل إسرائيل شرعية؟ هل للمنطقة العربية شرعية؟ ما الذي يجنيه الحق التاريخي؟ ما هو الاستقلال؟ حق تقرير المصير؟ حق الشعوب في التمتع بثرواتها؟ العدوان؟ الغزو؟ القوة؟ الاستعمار؟ القانون؟ الحرية؟ الوحدة؟ حق تقرير المصير؟ الجريمة والعقاب؟ الاستغلال للحقوق المشروعة والحقوق غير المشروعة؟ إلى غير ذلك مما لا حصر له من المفاهيم والمصطلحات. فمنذ اندلاع أزمة الخليج بشكل خاص، بدا واضحاً أن الساحة الثقافية في المنطقة العربية بعيدة عن تعريف أي من هذه المصطلحات التي طالما تداولتها الكتابات على نحو فضفاض لا يحمل أي عمق ثقافي في تفسيراته ومعانيه، ويجعل الثقافة ضائعة مرتبكة.

١٦ ـ ولا يمكن أن يكون هذا إلا بداية لمشروع يؤسس لثقافة غربية طال غيابها، لمشروع ثقافة يعيد لفكرة الوحدة العربية وهجها وعنفوانها، وذلك عبر الاستنباط الأمثل لأفضل ما في التراث العربي الإسلامي والفكر الغربي من أفكار. إنه مشروع إعادة صياغة النظرية القومية العربية على قاعدة نظرية معرفية شاملة تعالج كل القضايا وتجيب على كل الأسئلة التي لا تجد جواباً لها حتى الآن. فدولة الوحدة، ذلك المشروع، هي دولة التحديث الشامل التي ستفرض بحكم تفاعلاتها تطبيق ما ستفرزه الساحة الثقافية من تعريفات للديمقراطية وحقوق الإنسان، وحقوق الأقليات، والقانون والمواطنية، والفرص، وهي دولة لن تكون المرأة فيها أقل مساواة بين متساوين في الحقوق والواجبات، لأنها ستشغل الدولة حينئذٍ بالتظاهرات والإضرابات. فدولة الوحدة ليست غاية بحد ذاتها. إنها وسيلة لإسعاد هذه الجماهير التي طال عذابها. ولسوف يكتب الشعراء أجمل قصائدهم. فأجمل القصائد هي القصائد التي لم تكتب بعد.

صدر حديثاً

ديوان الحب العربي

تأليف

محمد سعيد اسبر

إن معظم شعر الحبّ في تراثنا العربي ما يزال دفيناً في بطون المؤلفات والدواوين، مشتّتاً، مجهول الموقع بالنسبة لقطاع واسع من القراء.

وهذا الكتاب يتناول أهم أشعار الحب التي نظمت من بداية العصر الجاهلي حتى نهاية مخضرمي العصرين الأموي والعباسي، من أبيات الشّنفري، حتى أشعار بشّار بن برد.

منشورات دار الآداب